

أبو صير وأبو قير

كامل كيلاني



أَبُو صَيْر وَأَبُو قِير

أَبُو صِير وَأَبُو قِير

تأليف
كامل كيلاني



أَبُو صِير وَأَبُو قِير
كامل كيلاني

رقم إيداع ١٦١٦٦ / ٢٠١٢
تدمك: ٩٢٥ ٩٧٧ ٦٤١٦ ٩٧٨

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٠١٢/٨/٢٦

إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره
 وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه
٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تلفيفون: +٢٠٢ ٣٥٣٦٥٨٥٣ فاكس: +٢٠٢ ٢٢٧٠ ٦٢٥٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: <http://www.hindawi.org>

رسم الغلاف: ورود الصاوي.

جميع الحقوق الخاصة بصورة وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي
للتعليم والثقافة. جميع الحقوق الأخرى ذات الصلة بهذا العمل خاضعة للملكية
العامة.

Cover Artwork and Design Copyright © 2011 Hindawi

Foundation for Education and Culture

All other rights related to this work are in the public domain.

أَبُو صِير وَأَبُو قِير

(١) «أَبُو صِير»

كان في الإسكندرية حلاق ذكي، حسن الخلق، طيب القلب، اسمه: «أبو صير». وكان فقيراً جداً لا يجد قوت يومه إلا بشق النفس. وكان يشكو الكساد ويفكر في ترك الإسكندرية والسفر إلى بلد آخر، ولكن كان يتربّص الفرص.

(٢) «أَبُو قِير»

وكان بحواره صياغ ماهر في صناعته، ولكنه ماكر خبيث سيئ السمعة اسمه: «أبو قير». وكان هذا الجار شرها طماعاً. وهو مثال للغش والخداع والمماطلة؛ إذا حدثك كذب عليك، وإذا وعدك أخلف وعده، وإذا ائتمنته خانك. فكرهه الناس، وكفوا عن معاملته، فكسرت صناعته، ولم يقبل عليه أحد، وصار الناس يحدرونه ويحذرون غيرهم من معاملته.

(٣) إفلاس «أبي قير»

وكان من عاداته إذا جاءه أحد يتوب - ليصبغه له - أن يتطلب منه الأجر مقدماً، بعد أن يوهمه أنه سيسألني به أصياغاً. فإذا انصرف صاحب التوب ذهب «أبو قير» بالثوب إلى السوق، فباعه وأشتري - بثمنه وبما أحده من الأجر - ما شاء من أطيب المأكل والحلوا.

فَإِذَا عَادَ إِلَيْهِ صَاحِبُ التَّوْبِ مَاطِلُهُ، وَتَعَلَّلَ لَهُ بِأَعْذَارٍ كَاذِبَةٍ: يَدَعِي – فِي الْيَوْمِ الْأَوَّلِ – أَنَّهُ كَانَ مَشْغُولًا بِبَعْضِ الضُّيُوفِ، وَيَزْعُمُ – فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِي – أَنَّ رَوْجَهُ وَلَدْتُ، وَهَكَذَا؛ حَتَّى يَمْلَ صَاحِبُ التَّوْبِ، فَيَطْلُبُهُ مِنْهُ لِيَصْبِغُهُ عِنْدَ غَيْرِهِ. وَحِينَئِذٍ يَقُولُ لَهُ «أَبُو قِير»: «الْحَقُّ يَا صَاحِبِي أَنِّي خَلِّ مِنْكَ حِدًا، وَلَسْتُ أَرْأِي بُدًّا مِنْ مُكَاشَفَتِكَ بِالْحَقِيقَةِ؛ فَقَدْ صَبَغْتُ نَوْبَكَ أَحْسَنَ صَبْغٍ، وَبَدَلْتُ جُهْدِي كُلَّهُ فِي إِنْقَاهِهِ، ثُمَّ جَاءَ لِصُ حَيْثُ فَسَرَقَهُ – لِسُوءِ الْحَظِّ – مِنْ دُكَّانِي، فَبَحَثْتُ عَنْهُ، فَلَمْ أَجِدْهُ». فَيَنْصَرِفُ صَاحِبُ التَّوْبِ إِذَا جَازَتْ عَلَيْهِ حِيلَتُهُ، أَوْ يَتَشَاجِرُ مَعَهُ إِذَا ارْتَابَ (أَيْ: شَكَ) فِي قَوْلِهِ، ثُمَّ لَا يَظْفَرُ مِنْهُ بِشَيْءٍ عَلَى الْحَالَيْنِ. وَمَا زَالَ كَذِلِكَ حَتَّى عَلِمَ بِهِ الْفَاقِي، فَأَمَرَ بِإِغْلَاقِ دُكَّانِهِ، حَتَّى يَأْمَنَ النَّاسُ شَرَهُ.

(٤) الْعَزْمُ عَلَى السَّفَرِ

وَكَانَ «أَبُو صِيرٍ» يَرِى مُمَاطَلَةَ جَارِهِ وَهَرَبَهُ مِنْ أَدَاءِ الْحُقُوقِ إِلَى أَصْحَابِهَا، فَيَنْصَحُ لَهُ بِالْإِسْتِقَامَةِ، فَلَا يَسْمَعُ لَهُ قَوْلًا. فَلَمَّا أَغْلَقَ الْقَاضِي دُكَّانَ «أَبِي قِير»، قَالَ لِصَاحِبِهِ «أَبِي صِيرٍ»: «مَا لَنَا وَلِهَاذَا الْمَكَان؟ أَلَيْسَ خَيْرًا لَنَا أَنْ نُسَافِرَ إِلَى بَلْدٍ آخَرَ، لَعَلَّنَا نَجِدُ رِزْقًا أَحْسَنَ مِمَّا وَجَدْنَاهُ فِي هَذَا الْبَلْد؟» وَكَانَ «أَبُو صِيرٍ» – كَمَا قُلْنَا – يُشْكُو الْكَسَادَ، وَيُفَكِّرُ فِي السَّفَرِ إِلَى بَلْدٍ آخَرَ، فَارْتَاحَ لِكَلَامِ صَاحِبِهِ، وَوَافَقَهُ عَلَى السَّفَرِ. فَقَالَ لَهُ «أَبُو قِير»: عَاهِدْنِي إِذْنُ عَلَى أَنْ نَعْمَلَ بِحِدٍّ، وَنَقْسِمَ بَيْنَنَا كُلَّ مَا نُصِيبُ مِنَ الرِّزْقِ بِالسَّوِيَّةِ. فَعَاهَدَهُ «أَبُو صِيرٍ» عَلَى ذَلِكَ، وَبَاعَ دُكَّانَهُ، وَاسْتَعَدَ لِلسَّفَرِ مَعَهُ بِأَوْلِ سَفِينَةٍ تَقْوُمُ مِنِ الْإِسْكُنْدُرِيَّةِ.

(٥) فِي السَّفِينَةِ

وَبَعْدَ أَيَّامٍ قَلَّا لَرَبِّ «أَبُو صِيرِ» وَصَاحِبُهُ سَفِينَةٌ كِبِيرَةٌ فِيهَا كَثِيرٌ مِنَ الْمُسَافِرِينَ. وَلَمَّا
صَارَتِ السَّفِينَةُ فِي عُرْضِ الْبَحْرِ نَشَطَ «أَبُو صِيرِ» إِلَى الْعَمَلِ، فَقَامَ – وَمَعْهُ أَدَواتُهُ –
لِيَبْحَثَ بَيْنَ رُكَابِ السَّفِينَةِ عَنْ عَمَلٍ لَهُ، فَنَادَاهُ أَحَدُ الْمُسَافِرِينَ لِيَحْلِقَ لَهُ رَأْسَهُ. وَلَمَّا انتَهَى
مِنْ عَمَلِهِ أَعْطَاهُ شَيْئًا مِنَ الطَّعَامِ وَالْمَالِ.
وَدَعَاهُ ثَانٌ وَثَالِثٌ، فَلَمَّا انْقَضَ النَّهَارُ عَادَ «أَبُو صِيرِ» إِلَى صَاحِبِهِ – وَمَعْهُ طَعَامٌ
كَثِيرٌ – فَأَكَلَا مَعًا. وَكَانَ «أَبُو قِيرِ» يُقْبِلُ عَلَى الْأَكْلِ بِشَهِيَّةٍ عَجِيبَةٍ، وَشَرَهُ لَا مَثِيلَ لَهُ. وَفِي
الْيَوْمِ الثَّانِي دَعَاهُ رُبَّانُ السَّفِينَةِ لِيَحْلِقَ لَهُ. وَسَرَّ مِنْ أَدَبِهِ وَمَهَارَتِهِ، فَدَعَاهُ وَصَاحِبُهُ إِلَى
الْأَكْلِ عَلَى مَائِدَتِهِ كُلَّ يَوْمٍ. وَكَانَ «أَبُو صِيرِ» لَا يَتَوَانَى عَنِ الْعَمَلِ، فَكَانَ يَحْلِقُ كُلَّ يَوْمٍ
لِبَعْضِ الْمُسَافِرِينَ، وَيَأْخُذُ مِنْهُمْ أَجْرَهُ، وَلَا يَضْنُ عَلَى صَاحِبِهِ «أَبِي قِيرِ» بِشَيْءٍ يَطْلُبُهُ، حَتَّى
وَصَلَّتِ السَّفِينَةُ – بَعْدَ عِشْرِينَ يَوْمًا – إِلَى مَدِينَةٍ كِبِيرَةٍ، فَنَزَلَ «أَبُو صِيرِ» مَعَ صَاحِبِهِ
إِلَيْهَا.

(٦) فِي الْمَدِينَةِ

وَلَمَّا طَافَا بِأَسْوَاقِهَا وَجَدَاهَا مُزْدَحِمَةً بِالْتُّجَارِ وَالصُّنَاعَ، فَعَزَّمَا عَلَى الْإِقَامَةِ فِيهَا أَيَّامًا.
وَاسْتَأْجَرَ «أَبُو صِيرِ» غُرْفَةً صَغِيرَةً فِي أَحَدِ الْفَنَادِيقِ لِيُقْيِيمَ فِيهَا مَعَ صَاحِبِهِ. وَكَانَ «أَبُو
صِيرِ» يُبَكِّرُ فِي الْقِيَامِ مِنَ النَّوْمِ فَيَرِي صَاحِبَهُ لَا يَزَالُ نَائِمًا، فَإِذَا أَيْقَظَهُ تَظَاهَرُ بِالضَّعْفِ
وَالْمَرَضِ، فَيَخْرُجُ «أَبُو صِيرِ» وَحْدَهُ إِلَى الْمَدِينَةِ يَتَمَسَّ رِزْقَهُ خَلَالَ النَّهَارِ، ثُمَّ يَعُودُ إِلَى
صَاحِبِهِ بِالطَّعَامِ، فَيَأْكُلُهُ بِشَرَهٍ غَرِيبٍ. وَمَا زَالَ كَذَلِكَ أَكْثَرَ مِنْ شَهْرَيْنِ.
ثُمَّ مَرَضَ «أَبُو صِيرِ»، وَاشْتَدَّ بِهِ الْمَرَضُ وَالضَّعْفُ، فَعَجَزَ عَنِ الْخُروجِ، وَلَزِمَ الْفِراشَ.
فَلَمَّا جَاءَ الْيَوْمُ التَّالِي، بَحَثَ «أَبُو قِيرِ» فِي الْغُرْفَةِ عَنْ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ فَلَمْ يَجِدْ شَيْئًا. وَرَأَى
صَاحِبَهُ «أَبَا صِيرِ» مُسْتَغْرِقًا فِي النَّوْمِ. فَظَلَّ يُقْفَشُ فِي ثِيَابِ «أَبِي صِيرِ» حَتَّى عَثَرَ عَلَى
كِيسٍ نُقُودِهِ، فَأَخَذَهُ مَعَهُ، ثُمَّ خَرَجَ وَأَغْلَقَ بَابَ الْغُرْفَةِ عَلَى صَاحِبِهِ «أَبِي صِيرِ» وَعَزَمَ عَلَى
الْهَرِبِ مِنْهُ.

(٧) مَصْبَغَةُ «أَبِي قِيرٍ»

ثُمَّ مَشَ «أَبُو قِيرٍ» فِي أَسْوَاقِ الْمَدِينَةِ، فَرَأَى دُكَانَ صَبَاغٍ. فَوَقَفَ يَتَأَمَّلُ فِي التِّيَابِ الْمَصْبُوغَةِ، وَهُوَ يَتَعَجَّبُ أَشَدَّ الْعَجَبِ، لِأَنَّهُ لَمْ يَرَ فِي الدُّكَانِ إِلَّا اللَّوْنَ الْأَزْرَقَ وَحْدَهُ. فَتَأَمَّلَ فِي مَلَابِسِ الْمَارَّةِ فَلَمْ يَرَ إِلَّا اللَّوْنَ الْأَزْرَقَ، وَاللَّوْنَ الْأَبْيَضَ، فَازْدَادَ عَجَبَهُ، وَأَخْرَجَ مِنْدِيلَةَ الْأَبْيَضِ، وَطَلَبَ مِنَ الصَّبَاغِ أَنْ يَلْوِنَهُ لَهُ بِاللَّوْنِ الْأَحْمَرِ. فَقَالَ لَهُ الصَّبَاغُ: «نَحْنُ لَا نَعْرِفُ إِلَّا اللَّوْنَ الْأَزْرَقَ». فَعَطَلَمْتُ دَهْشَةً «أَبِي قِيرٍ»، وَعَرَضَ عَلَيْهِ أَنْ يَقْبِلَهُ أَجْيَراً عِنْدُهُ، لِيُعْلَمَ كَيْفَ يَصْبِعُ بِالْأَلْوَانِ الْمُخْتَلِفَةِ الْأُخْرَى. فَرَفَضَ الصَّبَاغُ، وَقَالَ لَهُ: «نَحْنُ لَا نَقْبِلُ – فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ – غَرِيبًا عَنَّا».

فَذَهَبَ إِلَى صَبَاغٍ ثَانٍ وَثَالِثٍ وَرَابِعٍ، فَلَقِي مِنْهُمْ مِثْلَ مَا لَقِيَهُ مِنَ الصَّبَاغِ الْأُولَى. وَلَمْ يَكُنْ فِي قُفْرَتِهِ أَنْ يُنْشَئَ مَصْبَغَةً، لِفَقْرِهِ وَقَلْهَةَ مَا مَعَهُ مِنَ النَّقْودِ. فَذَهَبَ إِلَى الْمَلِكِ، وَبَسَطَ لَهُ شَاهِنَهَ، فَسَرَّ الْمَلِكُ مِنْ فِكْرَتِهِ، وَأَمَرَ بِإِنْبَاءِ مَصْبَغَةٍ كَبِيرَةً لَهُ فِي أَحْسَنِ شَوَارِعِ الْمَدِينَةِ وَفَقَ مَا يَشْتَهِي. وَأَحْضَرَ لَهُ كَثِيرًا مِنَ التِّيَابِ لِيَصْبِعُهَا لَهُ، فَصَبَغَهَا أَحْسَنَ صَبَاغٍ بِالْأَلْوَانِ مُخْتَلِفَةٍ. فَفَرَحَ الْمَلِكُ بِذَلِكَ، وَكَافَأَهُ أَحْسَنَ مُكَافَأَةً. وَأَقْبَلَ الْأُمْرَاءُ وَأَعْيَانُ الْمَدِينَةِ عَلَى مَصْبَغَتِهِ، فَرَاجَتْ صِنَاعَتُهُ، وَكَثُرَ مَالُهُ، وَأَصْبَحَ مِنْ كِبَارِ الْأَغْنِيَاءِ. وَلَمْ يُفَكِّرْ لَحْظَةً وَاحِدَةً فِي صَاحِبِهِ «أَبِي صِيرٍ» الَّذِي أَطْعَمَهُ وَآوَاهُ، وَبَذَلَ لَهُ كُلَّ مَا يَسْتَطِيعُ مِنَ الْمُسَاعَدَةِ فِي أَيَّامِ مُحْتَتِهِ وَفَقْرِهِ.

(٨) مُقَابَلَةُ الصَّدِيقَيْنَ

أَمَّا «أَبُو صِيرٍ» فَقَدْ لَزَمَ فِرَاسَهُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، وَهُوَ لَا يَسْتَطِيعُ الْحَرَاكَ مِنْ شِدَّةِ الْمَرَضِ، حَتَّى فَطَنَ إِلَيْهِ صَاحِبُ الْفُنْدُقِ، فَذَهَبَ إِلَى غُرْفَتِهِ فَرَآهَا مُغْلَفَةً. فَبَحَثَ عَنِ مَفْتَاحٍ يَفْتَحُهَا بِهِ، وَلَمَّا رَأَى «أَبا صِيرٍ» وَهُوَ مَنْهُوكُ الْفَوَى مِنْ شِدَّةِ الْمَرَضِ، عَطَفَ عَلَيْهِ وَرَقَ لَهُ قَلْبُهُ، وَوَكَّلَ بِهِ خَادِمًا يَحْدُمُهُ. وَبَحَثَ «أَبُو صِيرٍ» عَنْ كِيسٍ نَقْوِدَهُ لِيُعْطِي صَاحِبَ الْفُنْدُقِ شَيْئًا مِنَ الْمَالِ فَلَمْ يَجِدْهُ. فَقَالَ لَهُ صَاحِبُ الْفُنْدُقِ: «لَا يَحْزُنْكَ ذَلِكَ يَا أَخِي، فَإِنِّي لَسْتُ فِي حَاجَةٍ إِلَى الْمَالِ». وَمَا زَالَ صَاحِبُ الْفُنْدُقِ يُؤْسِي «أَبا صِيرٍ» وَيَعْنِي بِأَمْرِهِ – عِدَّةَ أَشْهُرٍ – حَتَّى

شُفِيَ مِنْ مَرَضِهِ، وَعَادَ إِلَيْهِ نَشَاطُهُ وَقُوَّتُهُ، فَخَرَجَ مِنَ الْفُندُقِ، وَمَشَى فِي إِحْدَى أَسْوَاقِ الْمَدِينَةِ، فَرَأَى زِحَامًا شَدِيدًا أَمَّا مَصْبَغَةٌ كَبِيرَةٌ. وَنَظَرَ فِي الْمَصْبَغَةِ فَرَأَى كَثِيرًا مِنَ الْخَدَمِ عَلَيْهِمْ أَفْخَرُ الْثِيَابِ. وَرَأَى صَدِيقَهُ «أَبَا قِيرِ» جَالِسًا فِي صَدْرِ الْمَكَانِ — وَهُوَ يَأْمُرُ وَيَنْهَا — فَفَرَحَ «أَبُو صِيرِ» أَشَدَ الْفَرَحِ بِمَا نَالَهُ صَدِيقُهُ مِنَ النَّجَاحِ وَالْتَّوْفِيقِ. وَقَالَ فِي نَفْسِهِ: «لَعَلَّهُ شُغْلُ عَنِي طُولَ هَذِهِ الْمُدَّةِ يُنْتَظِمُ هَذِهِ الْمَصْبَغَةِ الْكَبِيرَةِ! وَلَا شَكَّ أَنَّهُ سَيَفْرَحُ أَشَدَ الْفَرَحِ حِينَ يَرَانِي، بَعْدَ أَنْ شُفِيَ مِنْ مَرَضِي!» ثُمَّ دَخَلَ «أَبُو صِيرِ» لِيَهْنَى صَاحِبَهُ بِمَا نَالَهُ مِنَ النَّجَاحِ وَالْتَّوْفِيقِ، وَلَكِنْ خَابَ ظَهُورُهُ؛ فَمَا كَادَ يَرَاهُ «أَبُو قِيرِ» حَتَّى صَاحَ بِهِ غَاضِبًا: «أَلَا تَزَالُ — أَيُّهَا الْلُّصُوصُ الْخَبِيثُ — تَتَسَلَّلُ إِلَى مَصْبَغَتِي لِتَسْرُقَ الْتِيَابَ مِنْهَا؟ أَلَمْ يَكُفَكَ مَا سَرَقْتَهُ مِنِّي فِي الْمَرَاتِ السَّابِقَةِ؟ وَاللَّهُ لَا بُدُّ مِنْ عِقَابِكَ حَتَّى لَا تَتَوَدَّ إِلَى السَّرِقَةِ بَعْدَ هَذَا الْيَوْمِ». ثُمَّ أَمَرَ غَلْمَانَهُ بِضَرِبِهِ، فَضَرَبَهُ ضَرْبًا مُوْجِعًا حَتَّى أَغْمَيَ عَلَيْهِ مِنْ شِدَّةِ الضربِ، ثُمَّ أَلْقَوْبَاهُ فِي الطَّرِيقِ.

(٩) حَمَّامُ «أَبِي صِيرِ»

وَلَمَّا أَفَاقَ «أَبُو صِيرِ» عَادَ إِلَى غُرْفَتِهِ مَحْزُونًا مُتَالَمًا مَمَّا حَدَثَ لَهُ. ثُمَّ خَرَجَ فِي الْيَوْمِ التَّالِي بِيَبْحُثُ عَنْ حَمَّامٍ يَسْتَحِمُ فِيهِ، فَلَمْ يَجِدْ. فَسَأَلَ النَّاسَ: أَيْنَ يَسْتَحِمُونَ؟ فَقَالُوا لَهُ: «إِنَّا نَدْهُبُ إِلَى الْبَحْرِ لِنَسْتَحِمُ فِيهِ». فَقَالَ فِي نَفْسِهِ: «إِنَّ جَمَالَ هَذِهِ الْمَدِينَةِ الْكَبِيرَةِ لَا يَتَمُّ إِلَّا إِذَا أَنْشَئَ فِيهَا حَمَّامٌ». ثُمَّ ذَهَبَ «أَبُو صِيرِ» إِلَى الْمَلِكِ، وَسَرَحَ لَهُ فِكْرَتُهُ، فَرَضَيَ عَنْهَا، وَأَمَرَ بِإِبْنَاءِ حَمَّامٍ فَخُمِّ — فِي أَحْسَنِ مَكَانٍ فِي الْمَدِينَةِ — وَفَقَ مَا يَشَتَهِي «أَبُو صِيرِ». وَلَمَّا فَرَغُوا مِنْ إِبْنَائِهِ وَإِعْدَادِهِ، ذَهَبَ «أَبُو صِيرِ» إِلَى الْمَلِكِ، وَدَعَاهُ إِلَى زِيَارَةِ حَمَّامِهِ. فَلَمَّا دَخَلَ الْمَلِكُ الْحَمَّامَ سَرَّ مِنْ نِظَامِهِ وَنَظَافَتِهِ، وَأَعْجَبَ بِذِكَاءِ «أَبِي صِيرِ» وَأَدِبِهِ إِعْجَابًا كَبِيرًا. ثُمَّ خَرَجَ الْمَلِكُ — بَعْدَ أَنْ اسْتَحَمَ فِيهِ — مَسْرُورًا رَاضِيًّا. وَكَافَ «أَبِي صِيرِ» أَحْسَنَ مُكَافَأَةً. وَفِي الْأَيَامِ التَّالِيَةِ زَارَ الْأُمَرَاءُ وَالْوُزَرَاءُ وَأَعْيَانُ الْمَدِينَةِ حَمَّامَ «أَبِي صِيرِ»، وَأَعْجَبُوهُ بِهِ الْإِعْجَابَ كُلَّهُ. وَكَانَ يُكْمُمُهُمْ غَايَةَ الْإِكْرَامِ، فَأَحَبُبُوهُ جَمِيعًا، وَتَتَابَعَ النَّاسُ عَلَى حَمَّامِهِ.

وَلَمْ يَنْسَ «أَبُو صِيرِ» صَاحِبَ الْفُندُقِ الَّذِي آسَاهُ فِي مَرْضِهِ، فَدَعَاهُ إِلَى زِيَارَتِهِ وَأَكْرَمَهُ، وَأَرْسَلَ إِلَيْهِ كَثِيرًا مِنَ الْهَدَايَا الْفَاخِرَةِ وَالنَّفَائِسِ الْغَالِيَةِ.

(١٠) «أَبُو قِيرِ» يَزُورُ الْحَمَامَ

وَسِمَعَ «أَبُو قِيرِ» بِحَمَامِ صَاحِبِهِ الَّذِي ذَاعَ صِيتُهُ، فَذَهَبَ إِلَيْهِ. وَلَمْ يَكُنْ يَرَى صَاحِبَهُ «أَبُو صِيرِ» حَتَّى أَقْبَلَ عَلَيْهِ وَعَانَقَهُ، مُتَنَاسِيًّا إِسَاءَتَهُ إِلَيْهِ وَضَرْبَهُ وَطَرْدَهُ. وَقَالَ لَهُ: «أَهْذِهِ يَا أَخِي هِيَ حُقُوقُ الصُّحْبَةِ؟ أَهَكَدَا يَنْسِي الصَّدِيقِ صَدِيقَهُ؟ لَقَدْ بَحَثْتُ عَنْكَ فِي كُلِّ مَكَانٍ فَلَمْ أَعْثُرْ عَلَيْكَ، فَأَيْنَ كُنْتَ؟» فَتَعَجَّبَ «أَبُو صِيرِ» مِنْ كَلَامِ صَاحِبِهِ، وَقَالَ لَهُ: «أَلَمْ أَدْهَبْ إِلَى مَصْبَغِكَ لِزِيَارَتِكَ، وَكَانَ نَصِيبِي الْإِهْمَانَةُ وَالطَّرْدُ؟» فَتَظَاهَرَ «أَبُو قِيرِ» بِالْأَسْفِ، وَقَالَ لَهُ: «لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ! لَقَدْ حَسِبْتُكَ يَا أَخِي – لِسُوءِ الْحَظِّ – الْلَّصُّ الَّذِي تَعَوَّدَ سِرْفَةَ الشَّيَابِ. وَقَدْ كُنْتُ مَشْغُولًا فَلَمْ أَتَبْثِتْ مِنْ رُؤْيَايَتِكَ! وَلَعَلَّ الْمَرَضُ قَدْ غَيَّرَ مِنْ مَلَامِحِ وَجْهِكَ، فَلَمْ أَعْرِفَكَ! وَلَقَدْ كَانَ مِنَ الْوَاجِبِ عَلَيْكَ أَنْ تُنْبَهَنِي إِلَى خَطْئِي – حِينَئِذٍ – وَتَذَكَّرِي أَسْمَكَ لِأَقْاتِلَكَ بِمَا أَنْتَ أَهْلَهُ مِنَ التَّرْحِيبِ وَالْإِكْرَامِ».

(١١) نَصِيحَةُ «أَيِّي قِيرِ»

وَلَمَّا سِمَعَ «أَبُو صِيرِ» كَلَامَ صَاحِبِهِ، حَسِبَهُ صَادِقًا فِي دَعْوَاهُ فَعَدَرَهُ، وَأَكْرَمَهُ كُلَّ الْإِكْرَامِ. وَلَمَّا سَأَلَهُ «أَبُو قِيرِ» عَنْ سَبَبِ إِنْشَايَهُ هَذَا الْحَمَامَ، قَصَّ عَلَيْهِ «أَبُو صِيرِ» قِصَّتَهُ كُلَّهَا. فَقَالَ لَهُ «أَبُو قِيرِ»: «وَلَكِنَّكَ نَسِيَتَ شَيْئًا وَاحِدًا لَا يَكُمْلُ حَمَامَكَ إِلَّا بِهِ!» فَقَالَ لَهُ «أَبُو صِيرِ»: «وَمَا هُوَ؟» فَقَالَ لَهُ: «أَنْتَ حَلَاقُ ذَكَرٍ مَاهِرٌ فِي صِنَاعَتِكَ. فَلَوْ حَلَقَتِ الْمَلِكِ – حِينَ يَزُورُ حَمَامَكَ – لَزَادَ بِذَلِكَ سُرُورُهُ مِنْكَ.» فَحَسِبَهُ «أَبُو صِيرِ» مُخْلِصًا فِي نَصِيحَتِهِ، وَشَكَرَهَا لَهُ، وَوَعَدَهُ بِتَحْقيقِهَا.

(١٢) وشایة «أبی قیر»

ولَمَّا حَرَجَ «أبُو قِيرِ» مِنْ حَمَّامِ صَاحِبِهِ، ذَهَبَ مُسْرِعاً إِلَى الْمَلِكِ، وَقَالَ لَهُ: «لَيْسَ فِي قُدْرَتِي يَا مَوْلَايَ أَنْ أَكْتُمَ عَنْكَ حَقِيقَةَ هَذَا الرَّجُلِ الْخَيْثِ الْمَاكِرِ، فَقَدْ جَاءَ هَذَا الْبَلَدُ لِقَتْلِكَ». فَدَهْشَ الْمَلِكُ، وَلَمْ يُصَدِّقُهُ. فَقَالَ لَهُ «أبُو قِيرِ»: «إِنِّي أَعْرِفُ هَذَا الرَّجُلَ. وَقَدْ أَخْبَرَنِي أَنَّ مَلِكَ الْجَزَائِرَ - الَّذِي انتَصَرَ عَلَيْهِ فِي الْعَامِ الْمَاضِي وَقَهَرْتَهُ - أَوْفَدَهُ إِلَى مَدِينَتِكَ لِيُحْتَلَ لِقَاتِلِكَ، وَوَعَدَهُ بِمُكَافَأَةٍ عَظِيمَةٍ إِذَا نَجَحَ فِي مَكِيدَتِهِ. فَاحْذَرْهُ - يَا مَوْلَايَ - وَاحْمَدْ اللَّهَ عَلَى نَجَاتِكَ مِنْ شَرِّهِ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى». فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: «وَمَا هِيَ الْمَكِيدَةُ الَّتِي دَبَرَهَا لِقَتْلِي؟» فَقَالَ لَهُ: سَيِّدُ عَوْكَ إِلَى زِيَارَةِ حَمَّامِهِ مَرَّةً أُخْرَى، ثُمَّ يَقُولُ لَكَ: إِنَّهُ حَلَّقَ مَاهِرٌ، وَإِنَّ الْإِسْتِحْمَامَ لَا يَتَمُّ إِلَّا بِالْحِلَاقَةِ. وَقَدْ أَعْدَ لِقَاتِلِكَ مُوسَى مَاضِيَّةً مَسْمُومَةً.

(١٣) غَضْبُ الْمَلِكِ عَلَى «أبی صیر»

وَفِي الْيَوْمِ التَّالِي ذَهَبَ «أبُو صِيرِ» إِلَى الْمَلِكِ وَدَعَاهُ إِلَى زِيَارَةِ حَمَّامِهِ، وَلَمَّا عَرَضَ عَلَيْهِ أَنْ يَحْلُقَ لَهُ، وَرَأَى فِي يَدِهِ مُوسَى الْحِلَاقَةَ حَسِبَ «أبی قیر» صَادِقاً فِي وِشَايَتِهِ. فَغَضِبَ عَلَى «أبی صیر» غَضَبًا شَدِيدًا، وَأَمْرَ كِبِيرَ الْخَدَمِ أَنْ يَضْعَهُ فِي غِرَارَةٍ، (أي: زَكِيَّة)، ثُمَّ يُلْقِيَهُ فِي الْبَحْرِ، وَوَقَفَ الْمَلِكُ فِي النَّافِذَةِ لِيَرَاهُ.

(١٤) خَاتَمُ الْمَلِكِ

وَكَانَ كِبِيرُ الْخَدَمِ يُحِبُّ «أبَا صِيرِ» لِأَدِيهِ وَمَرْوِعَتِهِ، فَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَخْتَبِي فِي بَيْتِهِ، ثُمَّ يُسَافِرَ إِلَى بَلَدِهِ فِي أَوَّلِ سَفِيَّةٍ قَادِمَةٍ حَتَّى لا يَرَاهُ الْمَلِكُ. وَذَهَبَ كِبِيرُ الْخَدَمِ فَمَلَأَ الْغَرَارَةَ (أي: الرَّكِيَّةَ) حِجَارَةً وَرَمْلًا، وَوَقَفَ عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ تَحْتَ نَافِذَةِ الْقَصْرِ الْمَلَكِيِّ. وَأَشَارَ الْمَلِكُ إِلَيْهِ أَنْ يُلْقِي الْغَرَارَةَ فَالْقَاهَا، وَسَقَطَ خَاتَمُ الْمَلِكِ مِنْ إِصْبَعِ الْمَلِكِ، وَهُوَ يُشَيرُ بِهِ إِلَى كِبِيرِ الْخَدَمِ. فَعَادَ الْمَلِكُ وَهُوَ مَعْمُومٌ أَشَدَ الْغَمِّ. وَجَلَسَ «أبُو صِيرِ» عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ يَصْطَادُ السَّمَكَ، فَاصْطَطَادَ سَمَكًا كَثِيرًا. وَلَمَّا شَقَ السَّمَكَةَ الْأُولَى وَجَدَ فِيهَا خَاتَمَ الْمَلِكِ فَلَبِسَهُ، وَلَمَّا

عَادَ كَبِيرُ الْخَدَمِ إِلَى بَيْتِهِ أَرْسَلَ إِلَيْهِ خَادِمًا فَأَشَارَ إِلَيْهِ «أَبُو صِيرٍ» أَنْ يَحْمِلَ السَّمَكَ، فَسَقَطَ رَأْسُهُ عَنْ جَسَدِهِ. فَدُهِشَ «أَبُو صِيرٍ» أَشَدَّ دُهْشَةً.

(١٥) عاقِبةُ الْخِيَانَةِ

وَلَمَّا جَاءَهُ كَبِيرُ الْخَدَمِ، وَرَأَى الْخَاتَمَ فِي إِصْبَعِهِ قَالَ لَهُ: «اَحْذِرْ أَنْ تُشِيرَ بِخَانِمَكَ وَإِلَّا اَهْلَكْتَنِي، فَإِنَّ مَلِكَنَا لَا يَحْكُمُ الرَّعْيَةَ إِلَّا بِهِ، وَهُوَ إِذَا أَشَارَ بِهِ إِلَى أَيِّ إِنْسَانٍ قَتَلَهُ مِنْ وَقْتِهِ. وَفِي اسْتِطِاعَتِكَ أَنْ تَصِيرَ مَلِكَ الْمَدِينَةِ الْآنَ». فَذَهَبَ «أَبُو صِيرٍ» إِلَى الْمَلِكِ وَأَعْادَ إِلَيْهِ الْخَاتَمَ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: «قُلْ لِي بِمَاذَا أَكَافِئُكَ عَلَى مَعْرُوفِكَ؟» فَقَالَ لَهُ: «أَرِيدُ أَنْ أَعْرِفَ يَا مَوْلَايَ سَبَبَ غَضَبِكَ عَلَيَّ». فَأَخْبَرَهُ بِمَا قَالَهُ «أَبُو قِيرٍ». فَعَجِبَ «أَبُو صِيرٍ» مِمَّا سَمِعَ، وَقَصَّ عَلَيْهِ قِصَّتَهُ مَعْهُ فَغَضِبَ الْمَلِكُ عَلَى «أَبِي قِيرٍ»، وَأَمْرَ بِوَضْعِهِ فِي غِرَارَةٍ، وَإِلْقَائِهِ فِي الْبَحْرِ. وَشَفَعَ فِيهِ «أَبُو صِيرٍ» فَلَمْ يَقْبِلِ الْمَلِكُ شَفَاعَتَهُ. وَمَاتَ «أَبُو قِيرٍ» الْمِيَتَةُ الَّتِي دَبَّرَهَا لِصَاحِبِهِ، أَمَّا «أَبُو صِيرٍ» فَقَدْ كَافَأَهُ الْمَلِكُ أَحْسَنَ مُكافَأَةً. وَعَادَ إِلَى الإِسْكَنْدُرِيَّةِ وَصَارَ مِنْ أَغْنِيَائِهَا. وَقَضَى حَيَاتَهُ كُلُّهَا عَلَى أَحْسَنِ حَالٍ، وَاهْنَأَ بِالِّ.